حكم عاصف

تسعون عاما وعامان

حكم الأمويون الامبراطورية الاسلامية تسعين عاما وعامين . وهذه فترة ليست طويلة فى تاريخ الامم .. اقتسمها من خلفائهم ثلاثة عشر خليفة ، منهم ثلاثة حكموا نحوا من ستين سنة ، هم معاوية مؤسس الدولة ، وعبد الملك بن مروان خامس خلفائها ، والمؤسس الثانى لهذه الدولة ، وهشام بن عبد الملك الذى شارك معاوية فى سياسته وخالفه فى طبيعته فقد كان من أبخل الناس وأضنهم بالمال ..

وكان حكم الأمويين على قصر مدته ، من أعنف الفترات التى مرت بتاريخ المسلمين ، وأحفلها بالحوادث الجسام ..

ظهر فيها رجال كانوا مثلا فى البطولة وقوة الشخصية ، كما ظهر فيها رجال مثلا فى سوء السيرة ، وفساد الطوية ..

ظهر فى هذه الفترة أمثال قتيبة بن مسلم وموسى بن نصير وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم فاتح الهند ..

كما ظهر فيها رجل استباح لنفسه أن يذبح فى كربلاء الحسين بن على سيد الشهداء ، وآخر حاصر المدينة واقتحمها من ناحية الحرة ، وأباحها لجنوده ثلاثة أيام هتكت فيها كل

حرمة ؛ وارتكبت فيها كل معصية · وثالث (وكان خليفة) بلغ من مجونه انه كان يرشق المصحف بالسهام ··

وظهر فى هذه الأعوام التسعين من الفتن القبلية بين بعض العرب وبعضهم الآخر ما مزق قلب الدولة وأودى بمعنى الحكم والاستقرار فيها · فقد ثار الحضريون عرب الشمال على اليمنيين عرب الجنوب ··

وعامل الأمويون شيعة على بن أبى طالب ونسله بشـــدة شديدة ، وقسوة لطخت جوانب حكمهم بالدم المسفوك ·

وكان الخوارج من أعنف الأعاصير التى اجتاحت حكم دمشق للأمبراطورية الاسلامية ، فلم تهدأ لهم ثائرة ولم تنطفىء لهم فتنة ··

ولكن بلاء الأمويين فى الفتوح كان عظيما · فقد ضـــموا الأندلس الى رقعة البلاد الاسلامية ، ومضت جيوشهم الى الهند فاتحة غازية ، وطمعوا فى الاستيلاء على القسطنطينية بحرا ، وتسيير جيوشهم فى جنوب أوروبا حتى يلتقى القادمون من جبال البرانس بالزاحفين من جبل أولمب ··

وأخذ الشعر والفلسفة والأدب عامة طرقا جديدة فى عهد الأمويين ··

وكمـــا ظهرت نزعات التحلل والفســـاد ، ظهـــرت نزعات التصوف والاعتزال والارجاء ··

انها تسعون عاما ، ولكنها أشبه بقرون وأجيال طويلة من الحياة المتحركة بمدها وجذرها ..

ولنبدأ الآن أيامهم من بعد معاوية فى شىء من الاســـهاب والتحليل ..

يزيد بن معاوية

ذكرنا فى كتابنا الماضى « معاوية » انه أوصى ابنه قبل موته فقال :

« أنظر الى أهل الحجاز فهم أهلك وعشيرتك ، فمن أتاك فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده . وانظر أهل العراق ، فان ســألوك عزل عامل فى كل يوم فاعزله . فان عزل عامل واحد أهون من سل مئة ألف سيف لا تدرى على من تكون الدائرة .. ثم أنظر أهل الشام ، فاجعلهم الشعار دون الدثار ، فان رابك من عدوك ريب فارمه بهم .. ثم أردد أهل الشام الى بلدهم ، ولا يقيموا فى غيره ، فيتأدبوا بغير أدبهم ..

ولست أخاف عليك الا ثلاثة :

« الحسين بن على

« وعبد الله بن الزبير

« وعبد الله بن عمر

« فأما الحسين بن على فأرجو أن يكفيكه الله ، فان أباه قتل ، وأخاه خذل . وأما ابن الزبير فانه خب ضب ، فان ظفرت به

فقطعه اربا اربا . وأما ابن عمر فانه رجل قد قرقره الورع فخل بينه وبين آخرته ، يخل بينك وبين دنياك »

ويبدو أن رغبة الناس فى أن يتصرفوا فى أمور الأحياء بعد أن يذهبوا هم عن الدنيا ، وهم باطل ، وخطأ ما بعده خطأ .. فان هذه الوصايا من الأمويين لمن جاء بعدهم .. أوقعت العهد كله فى دنيا من التخبط والفوضى لم يقر لها قرار ..

وعلى الرغم مما اتصف به معاوية من بعد النظر وعمق التفكير ، فسنرى كيف سارت الدنيا بعده ..

كان الذين ترددوا فى بيعة ابنه يزيد أربعة ، لا ثلاثة .. فقد أضيف اليهم عبد الله بن عباس ..

وقد امتنع ابن عباس وابن عمر عن البيعة فترة قصيرة ، ثم أمضيا أمرهما ، وبايعا ..

أما عبد الله بن الزبير فقد غادر المدينة المنورة الى مكة ..

وكذلك صنع الحسين بن على . فقد قال لوالى يزيد :

« ان مثلى لا يعطى البيعة سرا ، ولا أراك تجتزىء بها منى سرا ، دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية .. فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا مع الناس ، فكان أمرا واحدا »

وفى خلال المهلة التى طلبها ، كان الحسين قد ركب راحلة مع أهله ، ومضى الى مكة ..

ودارت بين الحسين وأهل الكوفة من شيعة أبيه العظيم رسائل جاءه على رد واحدة منها :

« ... الحمد لله الذى قصم ظهر عدوك الجبار العنيد الذى اعتدى على هذه الأمة (يقصدون معاوية) ، فانتزعها حقوقها واغتصبها أمورها وغلبها على فيئها ، وتآمر عليها على غير رضى منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى أشرارها . فبعدا له كما بعدت ثمود . انه ليس علينا رآع ..

« فاقدم علينا ، لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى . فان النعمان بن بشير (والى الكوفة) فى قصر الامارة . ولسنا نجتمع معه فى جمعة ، ولا نخرج معه الى عين . ولو قد بلغنا مخرجك ، أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام » .

ولما كثرت الكتب على الحسين حتى جاوزت المئة وقيل جاوزت مئة وخمسين كتابا ..

وكان الحسين حريصا ، متمهل فى المسير ، وتلبية هذه الرغبات الملحة ، فبعث بابن عمه مسلم بن عقيل ، ليرى حقيقة الأمر ، ويزن الموقف .. ولما وصل الرسول الى هؤلاء الشيعة المتحمسين ، وجدهم كثرة ، وتقبل منهم بيعتهم للحسين ، وكتب اليه بالحضور ..

وأحس يزيد الخليفة بأن هناك أمرا يدبر ، فعزل واليه عن الكوفة ، وأسلم الامارة الى عبيد الله بن زياد ، من أظهر ولاة بنى أمية وأكثرهم قسوة وحزما ..

وما أن وصل عبيد الله بن زياد الى الكوفة حتى خافه الشيعة من أهلها ، وتفرقوا عن مسلم بن عقيل . فلجأ مسلم الى شيخ من رجال الكوفة الظاهرين هو هانيء بن عروة .. ولكن ابن زياد كان أطول سيفا ، فقد وصل اليهما وقتلهما معا ..

ولم يتمهل الحسين حتى يستوثق من الأمر ، بل اكتفى بكتاب ابن عمه له ، وعزم على المسير ..

ولكن عددا من الرجال ذوى الفكر الراجح نصحوه بالتريث ، منهم عبد الله بن عباس ، الذى أشار بأن ينتظر الحسين حتى تأخذ ثورة الكوفة وضعا عمليا « ... ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك » .

وقال الفرزدق للحسين : « خلعت قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية عليك » .

وربما كان أسوأ ما فى هذا الموقف الرهيب ، أن الكوفة عجزت حتى عن أن تنظم بريدا سريعا بينها وبين الحسين فى المدينة ، تعلمه بأحوالها . فلما حدثت الأحداث التى ذكرناها وتغير الوالى وتفرق الأتباع ، وقتل من قتل ولم يعلم الحسين بشيء مما حدث .

وفى الطريق علم الحسين بما حدث ، وان ابن عمه عقيلا قتل ، وهم بالرجوع حتى يتبين له الأمر . ولكن أبناء عمه أصروا على المضى ، وعلى الأخذ بثأر عقيل . فنزل الحسين على رأيهم .

يروى أبو الفرج الأصفهانى فى تصارع الطالبين

« لما أبى الحسين قبول رأى ابن عباس قال له : والله أعلم انى اذا تشبثت بك ، وقبضت على مجامع ثوبك ، وأدخلت يدى فى شعرك حتى يجتمع الناس على وعليك . وكان ذلك نافعى لفعلته . ولكن أعلم ان الله بالغ أمره .

ثم أرسل عينيه فبكى ، وودع الحسين ، وانصرف ومضى الحسين لوجهه . ولقى ابن عباس بعد خروجه عبدالله بن الزبير قال له : « قد خرج الحسين ، وخلت لك الحجاز » !

وعلم عبيد الله بن زياد بمسير الحسين ، فوجه له أحد قواده « الحر بن يزيد » مع جند كثير ..

وتقابل الحسين ، وهذا « الحر » .. قال الثانى :

ـ انى أمرت أن أنزلك فى أى موضع لقيتك ، وأجعجع بك ، ولا أتركك أن تزول من مكانك .. فرد الحسين :

ـ اذن أقاتلك . فاحذر أن تشقى بقتلى ..

ومضى الجمع الكثيف من الجند يسد الطريق على الجمع الصغير مع الحسين ، ويمنع من المضى الى الكوفة

يمضى أبو الفرج فى ذكر هذا النبأ فيقول :

وكان عبيد الله بن زياد لعنة الله ـ قد ولى عمر بن سعد الرى . فلما بلغه الخبر ، وجه اليه أن الى الحسين أولا فاقتله . فاذا قتلته رجعت ومضيت الى الرى . فقال له :

اعفنى أيها الأمير · قال (ابن زياد) قد أعفيتك من ذلك ، ومن الرى · قال اتركنى أنظر فى أمرى · فتركه ··

فلما كان من الغد ، غدا عليه ، فوجه معه الجيوش لقتال الحسين · فلما قاربه ، وتواقفوا ·· قام الحسين فى أصحابه خطيبا فقال :

« اللهم انك تعلم انى لا أعلم أصحابا خيرا من أصحابى · ولا أهل بيت خيرا من أهل بيتى · فجزاكم الله خيرا · فقد آزرتم وعاونتم · والقوم لا يريدون غيرى · ولو قتلونى ، لم يبتغوا غيرى أحدا · فاذا جنكم الليل ، فتفرقوا فى سواده · وانجوا بأنفسكم ·

فقام اليه أخوه العباس بن على ، وابنا على بن الحسين ، وبنو عقيل فقالوا له :

معاذ الله ، والشهر الحرام · فماذا نقول للناس اذا رجعنا اليهم ، انا تركنا سيدنا ، وابن سيدنا ، وعمادنا وتركناه غرضا للنبل ، وديئة للرماح ، وجزرا للسباع ، وفررنا عنه رغبة فى الحياة ·· معاذ الله · بل نحيا بحياتك ، ونموت معك ·

فبكى الحسين ، وبكوا معه ···

فلما كان الصبح والحسين بجيش عمر بن سعد ، بعث اله برسول يقول على لسانه :

ـ انى مخيركم ثلاثا : بين ان تتركونى ألحق بيزيد (الخليفة) أو أرجع من حيث جئت (الحجاز) أو أمضى الى بعض ثغور المسلمين فأقيم فيها

وبعث بهذه الرسالة الى أميره عبيد الله بن زياد فرد عليه بقوله :

وطمعت يا ابن سعد فى الراحة ، وركنت الى الدعة ناجز الرجل وقاتله ، ولا ترض منه الا ان ينزل على حكمى ..

واذن فكان لا بد من أن تحدث هذه المجزرة .

وفى يوم الجمعة العاشر من المحرم سنة ٦١ هجرية بدأ القتال ، فكان أصحاب الحسين يتقدمون رجلا رجلا يقاتلون حتى قتلوا .

وكان أول من قتل فى ذلك اليوم العصيب على بن الحسين .. قال الحسين وهو يرى مصرع ابنه

« قتل الله قوما قتلوك يابنى . ما أجراهم على الله ، وعلى انتهاك حرمة الرسول صلى الله عليه وآله .. على الدنيا بعدك العفاء .

وكان على قد رمى بسهم فوقع فى حلقه فخرقه ، واقبل يتقلب فى دمه ، ونادى مع حشرجة الروح .

ـ يا أبتاه عليك السلام . هذا جدى يقرئك السلام ويقول: عجل القدوم الينا .

وشهق شهقة فارق الدنيا فيها .

ولما انتهت هذه المبارزات القاتلة مع أصحاب الحسين ، وهو محاصر ، والماء ممنوع عنهم جاء دوره ، وبرز له من صفوف أعدائه درعه بن شريك ، فضرب كتفه اليسرى بالسيف ، فسقطت ، ثم انهالت على الهيئة السيوف ، وأقبل سنان بن

أنسى النخعى ، فاحتز رأسه ، وقيل آخر اسمه شمر بن ذى الجوشن ٠

وحملت رأس الحسين الى عبيد الله بن زياد ، وأمر بن زياد ان تمضى الخيل فوق جثمان الشهيد ذاهبة آيبة ٠

وحمل من بقى فى معسكر الحسين من بقية أهله الى يزيد فى الكوفة ٠

وكان من بين من بقى حيا ابن للحسين اسمه عليا ٠٠ وهو غير ابنه على الذى قتل ولكن من أم أخرى ٠٠

ويقول الفخرى : ان نساء الحسين ومن عاش من أبنائه حملوا الى يزيد فى دمشق ، مع رأس سيد الشهداء ، فردهم الى المدينة ٠

بعد مقتل الحسين

وفى التاريخ نظائر لهذه المذابح ، ولكن قتل الحسين على الصورة التى رويناها ، هز مشاعر المسلمين وقتها هزا عنيفا ، وما زال حتى اليوم يثير الاسى فى نفوسهم رغم مضى القرون والاجيال ٠

وقد أدت هذه الحادثة ، الى أن تغلغل حب على وبنيه فى نفوس المسلمين ، ولا سيما الذين كرهوا حكم الامويين من أبناء فارس وجنوب شبه الجزيرة ٠

ومن ذلك اليوم لم يستقر للامويين أمر ، بل يحمل هذا الحادث بتقصير حكمهم ، وبنشر الفتن والقلاقل فى أنحاء دولتهم ، وتمنى الكثيرون زوال حكمهم ٠٠

يقول « براون » فى تاريخ الآداب الفارسية

« ان فريق الشيعة أو حزب على كانت تنقصه الحماسة والرغبة في التضحية · ولكن تبدل هذا الحال ، وغدت ذكرى أرض كربلاء ، الملطخة بدم ابن بنت النبى ، مع ما قاساه من شدة العطش ، وأحاطته بجثث ذوى قرباه ·· كل ذلك غدا منذ ذلك التاريخ ، محركا للعواطف ، باعثا على الأسى والحزن، واشتدت الرغبة فى التضحية والنداء »

وكانت المناداة بثأر الحسين هى الصيحة التى وحدت صفوف المعارضة للحكم الاموى ·

ذكر الطبرى أنه لما قتل الحسين بن على جىء برؤوس من قتل معه من أهل بيته وشيعته وأنصاره الى عبيد الله بن زياد · فجاءت كنده بثلاثة عشر رأسا ، وصاحبهم قيس بن الأشعث ، وجاءت هوازن بعشرين رأسا وصاحبهم شمر بن ذى الجوشن · وجاءت تميم بسبعة عشر رأسا · وجاءت بنو أسد بستة رؤوس وجاءت مذحج بسبعة رؤوس · وجاء سائر الجيش بسبعة رؤوس ·· فذلك سبعون رأسا !!

حصار المدينة

ولم يكن مقتل الحسين وذوى قرباه هو الحادث الوحيد الفاجع فى عهد يزيد بن معاوية · فقد سير الى المدينة التى كانت مركزا لمعارضته ، جيشا بقيادة مسلم بن عقبة المرى · وكان رجلا عجوزا طاعنا فى السن ، ولكنه ماكرا قاسى الفؤاد ·

وحاصر مرسى المدينة ، وما زال حتى فتحها وأسرت فى القتل والنهب ٠

وينقل كتاب تاريخ الاسلام السياسى عن السيد أمير على المؤلف الهندى تعقيبه على هذه الواقعة بقوله :

« أستشهر فى تلك المعركة (أكرة وهى مكان بظاهر المدينة) زهرة أهل المدينة من الفرسان ومن خيرة أصحاب الرسول ٠ وقد أباح الامويون المدينة ودنسوها ٠ ذلك البلد الذى آوى الرسول مدة حياته ٠ وكان مهبط رسالته ٠ كما قاسى أهلها ، الذين أووا الرسول فى ساعة العسرة — أقسى ألوان العذاب وأشد الفظائع ٠٠ فقد حول جند يزيد المسجد الجامع الى أصطبل لخيولهم ، وهدموا الحرم والاماكن المقدسة لسلب ما فيها من أثاث ومتاع ٠ وهكذا شاء القدر ان تنتصر الوثنية ولو مرة منذ الاسلام ٠٠ وهكذا رد الامويون الى الاسلام ما أظهره نحوهم من رحمة ورفق ساعة انتصاره عليهم ٠

« أما خيرة أهل المدينة فمنهم قتل ، ومنهم من فر ليلتجو بحياته الى بعض الاقطار النائية واما القليل منهم ممن ظل بالمدينة ٠ فقد أصبحوا سبايا وعبيدا ليزيد بن معاوية ٠ ومن أبى منهم ذلك كان يكوى بالنار على رقبته ليوسم بتلك السمة المخزية ٠ ولم ينج من تلك الفضيحة وذلك العار سوى على بن الحسين زين العابدين ، وعلى بن عبد الله بن العباس ٠

« أما دور العلم والمبانى العامة التى بنيت فى عهد الخلفاء الراشدين فمنها ما أغلق ، ومنها ما تهدم ٠ ولم تستعد المدينة ما كان لها من حضارة ومجد ٠

« وهكذا · كانت تبدو تحت حكم الامويين ، كأنها مدينة لا ماضي لها ، أو مدينة ذات ماض مجهول · حتى ان المنصور ، ثانى الخلفاء العباسيين ، حين زارها احتاج الى مرشد ليهديه الى الاماكن التى كان يعيش فيها السابقون من أبطال المسلمين من رجال ونساء » ·

ومن هذا كله نرى أن معاوية في عدواته ، اكتفى بنصره على شيخ بنى هاشم على بن أبى طالب · فلما تولى ابنه يزيد من بعد كانت قوة العصبية القبلية وثارات الحرب بين البيتين هى التى يعيش عليها فما ان سنحت له فرصة حتى رد فى مذبحة كربلاء وفى وقعة الحرة على يوم الفتح ، الذى قاده رسول الله عليه السلام ··

ولولا أن مات يزيد فى العام التالى ، لحدث لمكة المكرمة ما حدث للمدينة · فان جنده ساروا اليها ، وخرج لهم عبد الله ابن الزبير مع خيرة أهلها يقاتل عن البيت الحرام · وأوقف الحرب ، لان الانباء جاءت بموت يزيد ·

وهكذا كانت ثلاثة أعوام وبعض عام من حكم الامويين فى عهد يزيد ، من أعنف وأقسى ما مر على المسلمين ·

obeikandl.com